ابن خلدون..
فلسفته الاجتماعية

الفصل الثالث

obeikandl.com

obeikandl.com

الغَرضُ الذي قَصَدَه ابنُ خلدون حين كتابة المقدمة. تعريفُه للتاريخ. خطوط المنهاج الأساسية

١-المقدمة محاولةٌ في النقد التاريخيِّ ناهضَ المؤلِّفُ فيها مَيْلَ مؤرخي الشرق إلى جمعهم جَمْعَ تَخْليطٍ كل الأخبار وكل الوقائع واضعين على مستوى واحدٍ حوادثَ التاريخ والأحاديثَ أو الأقاصيص التي هي أكثرُ الأمور بُعْدًا من الصحة سائرين، حَصْرًا وراء شَغَفِهم أن يُظهِروا أوسع ما يُمكن من العلم وأن يَبْدُوا غيرَ غافلين عن شيء.

« وأما الأخبارُ عن الواقعات فلا بُدَّ في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة.. وإذا فَعَلْنا ذلك كان ذلك قانونًا في تمييز الحقِّ من الباطل في الأخبار والصدقِ من الكَذِب بوجهٍ بُرهانيٍّ لا مدخل للشكِّ فيه.. وهذا هو غرضُ هذا الكتاب الأولُ من تأليفنا".

٢- يَقُومُ الغرض الثاني الذي نَدْعوه غرضًا اجتماعيًا حصرًا في محاولته إيضاح الحوادث الاجتماعية.

إن وجود المجتمعات حادثةٌ، ويدور الأمرُ عند ابن خلدون على دراسة أصلها، وعلى تَبَيُّن عِلل الفروق القائمة بين مختلف الزُّمر الاجتماعية وطُرُز حياتها،

ويسوق هذا الاستقصاءُ المؤلف إلى البحث في تأثير البيئة في الحياة الاجتماعية، وإلى درس تكوين الحادثات الاقتصادية ومحاولة إيضاح بعض هذه الحادثات والسُّنَن التي تُهيمن عليها.

٣- بَيْدَ أن المجتمعات من الهيئات السياسية أيضًا، وهي تُوَلِّف دوَلاً يُنَضَّدُ فيها النظامُ السياسيُّ فوق المميزاتِ الجغرافية واقتصاد الزمرة، وسيُوجِّه ابن خلدون، الذي كان قطبًا سياسيًا في جميع حياته، جميعَ انتباهه نحو هذه الأمور، وسيحاولُ رسمَ نظريةٍ عامة وأن يدرس بالتتابع أصلَ السيادة واتساعها زمانًا ومكانًا، حتى إنه سَيَبْلُغ من المَدَى ما يُبيِّن معه سُنَّةً مُوجزَةً لتطور السِّيادات.

ويرغبُ ابنُ خلدون، منذ بدء مقدمته، أن يشير إلى شعوره بأنه يَقوم بمحاولةٍ غير مسبوقٍ إليها، هو يردِّد ذلك من غيرِ تواضعٍ في جملٍ تَنمُّ على زهوٍ رائع، ومن ذلك قوله:" واعلم أن الكلام في هذا الغَرَضِ مُسْتَحْدَثُ الصَّنْعةِ غريبُ النَّزعة، غزير الفائدة، أعْثَرَ عليه البحث، وأدَّى إليه الغَوْصُ".

وكان هذا الرجلُ العظيمُ التحقيق يُقَدِّر أنه لم يَعنَّ لأحدٍ من جميع المؤرخين الذين عرفهم أن يجاوز حدَّ رواية الوقائع روايةً بسيطة، ومن الطرائف أن يُحَقق ظهور علماء اجتماعٍ آخرين بعد عِدَّة قرون يبدون لُمعًا من الخُيَلاَء كالتي أَبْدَى ابنُ خلدون، ومن ذلك حديثُ أُوغوست كونت عن "بعثتِه المنقطعة النظير"، وما كان ابن خلدون يَدْري شيئًا من المحاورات الأفلاطونية حَوْل الدول ولا من سياسة أرسطو، وبما أنه كان لا يَعْرِف أيَّ مُبَشِّرٍ به فإن من الصواب أن يُعَدَّ مُبْدِعًا ذا ذكاءٍ ممتازٍ.

وسنرى فيما بعد أنه كان يُمكنِ ابنَ خلدون أن يَعُدَّ نفسه (ولو من الناحية النفسانية على الأقلِّ) مُوجدًا حقيقيًا لعلمٍ جديدٍ بذَل جُهْدهَ أن يجاوِز به نِطَاقَ

التعليم التاريخي التقليدي وأن يَرْتَقِي إلى دراسة ما نسميه في أيامنا السُّنَنَ التي تُهيمن على المجتمعات البشرية وتسيطر على تطور الدول، ويُسْخِطه أن يَرى أن كُتُبَ التاريخ لم تكن حتى ذلك الحين غيرَ جداولَ بأسماء الملوك والبيوت المالكة، وما لا نهاية له من قوائم الحوادث، وهو يريد حين يقوم بمقارناتٍ، وحين يميزُ بين مشابهاتٍ، أن ينتهي إلى تعيين العلل الحقيقية للحوادث، والصلات اللازمة بين مختلف المراتب في الوقائع التاريخية.

ويُوجَدُ لدى ابن خلدون خُلُقٌ لا يقبل الجدل وفكرٌ عبقريٌّ أي أن يُظْهِر نفسَه قابلاً للحيرة فينتبه بغتةً ويضَعَ لنفسه أسئلةً عن الأمور العادية التي يَنْظُر إليها الجمهور نظرًا آليًّا من صميم ما تأصَّل من العادات، شأنُ تفاحةِ نيوتن، وكذلك وجودُ البيوت المالكة والدولِ والسيادات وأهل البدو والحضَر لم يَكُن بِدْعًا لا ريب ومع ذلك فإن ابن خلدون لم يكن ليرضى برؤية العين هذه، فقد أسفرت رغبته في الاطلاع عن المقدمة، عن محاولةٍ حَوْل التاريخ العامِّ من حيث تصاريف السياسةِ في شمال إفريقية.

ويُبَيِّن ابن خلدون النِّقَاط التي يَخْتَلفُ بها أثره عن الآثار التي تقدَّمته، فعنده أن تآليف المؤرخين حتى زمنه ليست سوى سَرْدٍ للحوادث التي لا تُنْمِي الذهن ولا تَنْطَوِي على إمتاعٍ للفيلسوف، ومن قوله:" فَيبقى الناظرُ مُتَطَلِّعًا بَعْدُ إلى افتقاد أحوال مبادىء الدول ومراتبها، مفتشًا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها باحثًا عن المقَنع في تباينها أو تناسبها"، وكذلك يجدُ ابن خلدون أن المؤرخين لم يخطر ببالهم قَطُّ أن يَصْنَعوا مثله في أمر الدول، فهم" لايتعرضون لبدايتها، ولا يذكرون السببَ الذي رَفَع من رايتها، وأظهر من آيتها"، فالقارئُ يعتقدُ أنه يَسْمَعُ بهذا نقدًا عصريًا كالذي يُوَجَّهُ في أيامنا إلى تعليم التاريخ أحيانًا.

وما يتكلم به ابنُ خلدون من عُنْفٍ حَوْلَ المؤرخين يزيد مَغْزى في نظرنا، أيضًا، عند عِلْمِنا أن صوته بَقِي بلا صدى وأن المقدمة، وما عُبِّرَ عنه فيها من قواعدِ النقد والمِنْهَاج تعبيرًا صريحًا أو ضمنيًا، ظلاَّ حُكْمًا بلا تنفيذٍ في المشرق، وفضلاً عن ذلك لم يَسِر ابنُ خلدون نفسُه على نَحْوِها في كُتُبه التاريخية التي أَلَّفها فيما بعد والتي يجدُ القارىءُ فيها الطابع المملَّ لكُدسٍ مختلطٍ من الوقائع التي لا يُحْصيها عدٌّ والتي هي أمرٌ مُعْتَادٌ لدى مؤرخي الحَوْليات في المشرق، وقد يَعْتَذِر عن ذلك بأنه لم يؤلِّف مُعْظَم آثاره التاريخية في أثناء العُزْلَة والتأمل كما اتَّفَقَ له عند وضع المقدمة، بل في جَوٍّ من الدسائس كان يَسُودُ البَلاَطاتِ الإفريقية الصغيرةَ، وتاريخُ البربر الذي هو أهمُّ كتبه التاريخية حَضْرًا، وقد أُحْكِم نَضجُه بأمرٍ وتوصيةٍ من قِبَل أميرٍ حفصيٍّ بتونس، ولِذَا فإن المؤلِّف كان مُلْزَمًا بمراعاة تفضيلاتِ السيد وميوله وطُرُز المكان والزمان الأدبية فضلا عن ضرورة الإسراع، ومُجْمَلُ القول: إنه صَنَع كما لو قام، على وجهٍ غيرِ مباشر، بعمل المُدَوِّن لوقائع عصره مع جميع ما يقتضيه هذا العملُ الكَنُودُ، بين كلِّ أمر، من تنزُّلٍ ذهني، أي التزام عدم صَدْمِه ولطَمه، حتى ضمْنَ عادات ذهنه،القارىء الذي هو سيدٌ في الوقت نفسه، والتزام الوقوع عنده موقعَ الرِّضا، وتقديمه من التفاسير ما ينتظر، وإطنابه في النِّقاط التي تَروقُه، وعندنا أنه لم يُشَدَّد بما فيه الكفاية، حول المناظر «الملائمة لعادةالدُّلْفين» في قسمٍ كبير من أثر ابن خلدون التاريخيِّ، والتي تجدُ له بعضُ العُذْر في قلة مطابقتها للمقدمة، وذلك أن هذه المقدِّمة أُدْرِكت وأُعِدَّت في جوٍّ كامل من الاستقلال.

وما يكون غَرَضُ مؤلفنا العلميُّ، إذن بعد أن صاغ ذلك النقدَ البالغَ الشِّدَّة؟ لقد أوضح ذلك الغرضَ إيضاحًا كثيرَ الدقة، وقد أعطى التاريخَ (وهو لم يَرَ مَنْحَ عِلْمِه

اسمًا جديدًا) تعريفًا واسعَ المدى يجعلُ بين برنامجه وبين البرنامج الذي يُعَيِّن لعلم الاجتماع الحديث من صِلة النَّسَب ما يثير العجبَ، قال ابنُ خلدون:" حقيقةُ التاريخ خبرٌ عن الاجتماع الإنسانيِّ الذي هو عُمرانُ العالَم وما يَعْرِض لطبيعة ذلك العُمران من الأحوالِ مثلِ التوحش والتأنس والعَصَبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من المُلك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائرِ ما يَحْدُث في ذلك العُمْران بطبيعته من الأحوال"[1].

وهذا التعريفُ من أكمل ما يكون، حتى إنه يُمْكِن أن يقال: إنه يُجاوِزُ نِطاقَ التاريخ الخاصَّ، وهو إذا ما حُلِّل أُبْصِرَ اشتمالُه على أصولِ جميعِ العلوم الاجتماعيَّة كما تُدْرَك وتَقومُ في الوقت الحاضر.

وأولُ ما في الأمر هو أن هذا التعريف يَدُلُّ على شغلِ ابنِ خلدون الشاغلِ في البحث عن تكوين الحضارة، وفي محاولته أن يُدْرك الوجهَ الذي استطاعت بعضُ الزُّمَر أن تَرْتَقِيَ به من حال التوحش، الذي يُمْكِن عَدُّه حالاً أصليةً لكلِّ حياةٍ اجتماعيَّة، إلى نظامٍ أكثرَ تركيبًا، وهذا الشُّغْلُ الشاغِلُ هو الذي يجب أنِ يَعْرِضَ لرجلٍ من شمال إفريقية موهوبٍ أكثر مما لأيٍّ آخر، وذلك أنه كان يقعُ تحت عينيه، كما لا يزال يقع تحت أعيننا في الوقت الحاضر، منظرُ زُمَرٍ من الآدميين الذين ينتسبون إلى ذات العِرْق ويتكلَّمون بنفس اللغة ويزاولون عين الدين ويظهرون مع ذلك فُرُوقًا خارقة للعادة من الوِجهة الاجتماعية، ولم يقتصر ابن خلدون على معرفة هذه الفروق، بل عاش بينها، وهو في الدَّور الذي كتب في المقدمة، أقام طويلاً بعاصمتي المغرب

(١) يوجد مجال للمقابلة بين هذا التعريف والمدى الذي يعينه دور كايم لعلم الاجتماع، فانظر إلى «قواعد المنهاج الاجتماعى»، وانظر أيضًا إلى مادة علم الاجتماع في « الموسوعة الكبرى».

الإسلاميتين: تونسَ، وفاس، وكان يَعرِف الأندلس لسابق قيامه بخدمة سلطان غَرْناطة، وكان قد عاش في كثير من صُغْرَيات الممالك البربَرية تقريبًا، وأخيرًا عاش بين قبائلَ بدويةٍ عربية من بني هلال، والحقُّ أنه يُوجَدُ في كلِّ مكان، كما لا يزال يوجد، من الفروق ما يُمْكِن أن يكون عظيمًا بين مختلف طبقات السكان في ذات البلد أو في البِقاع المجاورة، ولكن هذه الفروق لم تكن في بلدٍ بارزةً بُرُوزَها في شمال إفريقية حيث كانت تترجَّح بين أقصى التوحش وأَنْعَمِ حياة حضَرية، وذلك لأن مما لا رَيْبَ فيه أن كانت المُدُنُ الشرقيةُ في ذلك الدَّوْر، من حيث الترف المادي ومن حيث الثقافة والفنون، أرفعَ على العموم من أروعِ ما كان يشتمل عليه الغربُ من مُدُن.

والمسألةُ التي كان يجبُ أن تُساوِرَ ذهنه بحكم الطبيعة هي التي تَدُور حَول سبب تلك الفروق العظيمة، فهو إذ يذهب إلى أن نقطة الانطلاق في جميع المجتمعات متماثلةٌ كان حُبُّ اطلاعِه يَسُوقه إلى دراسة الطريق التي جاوزتها المجتمعات الراقية.

وحُبُّ الاطلاع هذا، أو السؤال عن السبب هذا كان يَحْمِلُه إلى ثلاثة أصناف من الحوادث يَميزها ويجدُها تساعد على وقوع هذا الارتقاء، فالأولى: ذاتُ سِمَاتٍ نفسية، وهي تؤلف أساسَ المشاعر والأفكار التي تقيم ما بين مختلف زُمر الناس (الأسْرَة والقبيلة، إلخ). من رابطةٍ اجتماعيَّة.

والثانيةُ: هي الحوادثُ الاقتصادية، وصِلاتُ هذه الحوادث بالوضع الطبيعي والموقع الجغرافيِّ وتزويج الأعمال والحِرَف والصناعات.

والثالثةُ: هي الحوادثُ السياسيَّة، أي قيامُ صِلاَتِ خضوعٍ بين الناس، وايجادُ سلاسل مراتبَ وإحداثُ سياداتٍ وظهورُ دولٍ وبيوتٍ مالكة، وكان ابن خلدون في موضعٍ حسنٍ على الخصوص، أي في وضعٍ يستطيع أن يتكلم فيه حَوْل

هذه المسائل لما اتفق له من تجربةٍ، وما وُلِّيَ من مناصبَ، وما مَثَّلَ من دَوْرٍ، قليلِ الوضوح غالبًا، في مكايد زمنه السياسيَّة، فهو قد شاهد ظهورَ بيوتٍ مالكةٍ وانهيارَها، وهو قد عَرَفَ الدَّور الذي مُثِّلَ في شمال إفريقية من قِبَل مختلفِ أصناف الأهلين، أي من قِبَل سكان المدن والأرياف وقبائل الأعراب المرهوبة، وهو قد استطاع أن يَتَجَرَّد من الوقائع الخاصة(وهذا أصعبُ ما يكون)، ولا سيما الوقائعُ التي كان قد اختلط بها باذلاً وُسْعَه في الإشراف عليها ووَصْفِ جهازِها الملازم لها كما كان يَلوح.

ويُقيمُ ابن خلدون على اختباراته آمالاً عظيمة، فهو حينما تَكَلَّم عن مجموع أثره، أي عن المقدمة التي عَقَّبَها تاريخه العامُّ الكبير قال عن كتابه: إنه "اسْتَوْعَب أخبارَ الخليقة استيعابًا، وذلل من الحكم النافرة صعابًا، وأعطى لحوادث الدول عِللاً وأسبابًا...".

ويستوحي المِنْهَاجُ الذي يستخدمه ابنُ خلدون لتحقيق هذا البرنامج كثيرًا من الشواغل، وشاغلةُ الَمحْسُوسِيَّة هي أولاها، فهو يُريدُ أن يكون مذهبُه يُنْتَظَر احتفاظُه بكبير إعجابٍ نحو مؤسسي الدول أو البيوت المالكة، ولا غَرْوَ، فالأغارقة كانوا يُضَحُّون في سبيل مؤسسي دولهم، وذلك لأنهم كانوا يَضَعونهم في مصافِّ الخالدين، وكثيرًا ما كان مؤسِّسو البيوتِ المالكة في المغرب من الوجوه الذين يُحْسَبُون أولياء كالإدريسيِّ وابن تُومِرْت إلخ.

بَيْدَ أن سيرة السَّرِيِّ حَوْلَ هذه النقطة أيضًا توضح نظرياته، فلا مِرَاءَ في أن ابن خلدون عُرف لأسبابٍ مرشحًا مُصِرًّا على تأسيس بيتٍ مالكٍ، وذلك أن كلَّ شيء في سلكه المضطرب يدلُّ على أنه أراد السلطة، حتى السيادةَ، إرادةَ وَلَع.

ولابن خلدون شاغلةٌ ثابتةٌ أخرى، وهي ألا يناقض تعاليمَ الدين في أيِّ أمرٍ كان، حتى إنه يأتي بإيضاحاتٍ مطوَّلةٍ ليُظهرَ عندما يتناول نقطةً دقيقة، أن فلسفته

تَنْسجم انسجامًا تامًّا مع العقيدة الإسلامية، حتى إنه يأتي ببراهينَ جديدةٍ مراعاةً لهذه العقيدة، وتَحُولُ هذه الشاغلةُ الموافقةُ للدين دون قيام واضع المقدمة بعددٍ من المناقشات التي يُمْكِن أن تُعَدَّ من أروع ما يكون، ومن ذلك أنه لم يتناول في فصوله الخاصة بالأمور الاقتصادية، قَطُّ، ما قَضَتْ به الشريعةُ الدينية قضاءً جازمًا، كوجود المِلْك والدَّين مع الفائدة وكالضرائب، إلخ.. ومِثْلُ هذا موقفه تجاه السلطان السياسيِّ، وإذا ما عُدَّت الأمورُ البالغة هذا المقدار من الأهمية محكومًا بها حُكْمًا أبديًّا نَمَت على ما يَسُود المقدمةَ في مجموعها من روحِ الجَبَرية.

obeikandl.com